النائمات على العشب

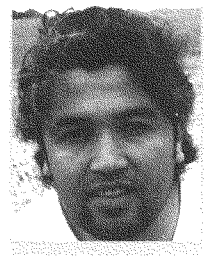

إسماعيل غزالي: قاصّ من المغرب. صدرتْ له مجموعات قصصيّة عدّة: **رقصات الخلاء، رطانات، ديك خلاسيّ، عسل اللقلق، لعبة مفترق الطرق.**

لم يجئن للاستحمام، ولا كان يخطر في بالهنّ أن يمضين تلك الساعات على ضفّة النهر.

كنّ أربعَ إناث نزلن، بعد أن تعطّلتْ سيّارةُ الجيب التي كانت تقلّهنّ، عند تخوم الجسر الذي يربط بين ثغر قرًى منسيّةٍ في أقصى الجنوب وبين مدينةٍ على بعد مائة كلم.

حينما استعصى على السائق إصلاحُ عطب السيّارة، طلب إليهنّ النزولَ إلى ضفّة النهر، وسار على قدميه صوب دار يزعم معرفتها في الوادي كي يستعين بدابّةٍ تُقلّه إلى ميكانيكيٍّ في إحدى القرى المجاورة.

على عشب استلقين بوضعيّات مختلفة، وانخرطن كما يليق بالمقام في حوارٍ يندب حظّهنّ العاثر في الوصول إلى المدينة.

العجزاء ذاتُ الجلباب الأزرق كانت تقصد المدينة من أجل بنتها الوحيدة، التي انقطع خبرُها منذ تزوّجتْ من سنة.

ذاتُ الشعر المنسكب حتى ردفيها كانت تقصد المدينة من أجل دواء نادر لزوجها الطريح ككومة عظمٍ في الفراش من سنة.

القصيرة ذات الصدر الجامح كانت تقصد المدينة من أجل السؤال عن زوجها الذي لم يظهر له أثر منذ خرج من سنة للبحث عن العمل.

وأصغرهنّ ذات العينين الخضراوين ذاهبة من أجل زيارة أختها البكر التي تعمل في البريد.

❖❖❖

مرّ وقت يائس من دون رجوع السائق الذي قدّر المسافةَ والأمرَ في نصفِ ساعةٍ لا غير، ساعة إلا عشرين دقيقة على الأكثر كما زعم. فتجرّدْن من جلابيبهنّ لفرط الصهد. وتقلبْن في وضعيّات استلقائهنّ، وقد توغّلَ بهنّ الحديثُ بعيدًا وهنّ تارّةً يفتّحن جروحهنّ عن آخرها وتارةً أخرى يطردن الهمّ بكلامٍ عارٍ يجعل ضحكاتهنّ الماجنة تتفرقع في عمقِ المكان السحيق.

لم يكن يُسمع في الوادي الوعر غيرُ هدير النهر.

استطال زمنُ رجوع السائق فوق المتوقع. حلّت الظهيرةُ الشّائنةُ الحرّ. كانت العجزاءُ قد قامت للتبوُّل مرّة. نزعتْ ذاتُ الشعر المنسكب حتى ردفيها قميصَها من فرط الصهد، فانبلج صدرُها البضُّ أكثر من اللازم وتنافر كطائرين مارقين ضاق بهما سجنُ الحمّالة. غسلت القصيرةُ ذاتُ الصدر الجامح وجهَها وقدميها أكثر من مرّة. أما أصغرُهنّ ذاتُ العينين الخضراوين فلم تقاوم استفحال القيظ وغطستْ في النهر عاريةً تمامًا، وسبحتْ في دقائق معدودة بكامل حريتها دونما خوف من مباغتة غريب المكان؛ فالوادي المتوحّش لا يؤمه الآدميون إلا في يوم أعزل من الأسبوع، وهو اليومُ المخصّص للتسوّق.

جفّتْ آخرُ قطرةٍ على جسد خضراء العينين، والسائقُ لم يرجع بعدُ. وقامت ذاتُ الشعر

المنسكب حتى الردفين وتبوّلتْ بدورها قريبًا، ولم يرجع السائقُ بعد. وتجرّدت العجزاءُ من بقيّة ملابسها الشفّافة وغطستْ أيضًا في مياه النهر واستحمّت في دقائق معدودة، ولم يرجع السائق بعد. وزغردت القصيرة وغنّت فرحًا ورقصت احتفالاً بذلك، ولم يرجع السائقُ بعد.

جفّتْ آخرُ قطرةٍ على جسد العجزاء، وسائقُ السيّارة لم يرجع بعد. وقامت القصيرةُ ذاتُ الصدر الجامح وتبوّلتْ بدورها، ولم يرجع سائق السيّارة بعد. وتجرّدتْ ذاتُ الشعر المنسكب حتى الردفين من بقيّة ملابسها الداخليّة وغطستْ في مياه النهر أيضًا واستحمّت في دقائق معدودة، ولم يرجع سائقُ السيّارة بعد. وزغردتْ خضراءُ العينين وغنّت فرحًا ورقصت احتفالاً بذلك، ولم يرجع السائق بعد.

جفّت آخر قطرة على جسد ذات الشعر المنسكب حتى الردفين، وسائقُ الجيب لم يرجع بعد. وقامت خضراءُ العينين وتبوّلتْ قريبًا، وسائقُ الجيب لم يرجع بعد. وتجرّدت القصيرة ذاتُ الصدر الجامح من بقيّة ملابسها الداخليّة وغطستْ في مياه النهر أيضًا واستحمّتْ لدقائق معدودة، وسائقُ الجيب لم يرجع بعد. وزغردتْ ذاتُ الشعر المنسكب حتى ردفيها وغنّت فرحًا ورقصت احتفالاً بذلك، وسائقُ الجيب لم يرجع بعد.

جفّتْ آخرُ قطرةٍ على جسد القصيرة ذات الصدر الجامح، وسائقُ سيّارة الجيب لم يرجع بعد. قمن جميعُهنَّ وتبوّلن، ولم يرجع سائقُ سيّارة الجيب بعد. غطسن في مياه النهر جميعُهنَّ واستحممن لدقائق معدودة، ولم يرجع سائقُ سيّارة الجيب بعد. زغردن وغنّين فرحًا ورقصن لذلك، ولم يرجعْ سائقُ سيّارة الجيب بعد.

❖ ❖ ❖

جفّتْ آخرُ القطرات على أجسادهنَّ وهُنَّ نائماتٌ فوق العشب من فرط الاستحمام والسباحة والغناء والرقص والانتظار. مضى على استغراقهنَّ في غفوة القيلولة أكثر من نصف ساعة، حتى نسين أنفسهنّ عارياتٍ على عشب الضفّة. وحين سُمِعَ لسيّارةٍ هديرٌ قريبٌ منهنَّ، استفقن هلعاتٍ، وسارعْنَ مخبولاتٍ إلى ارتداء ملابسهنّ. كان الهدير لسيّارة جيب أخرى. لم يكن سائقُ الأولى المعطوبة هو من رجع، بل كان سائحًا أجنبيّاً جاء وحده، وقد أطلَّ من النافذة ونادى عليهنَّ بلهجة ركيكة كي يركبن إنْ كنَّ يقصدن المدينة. وهذا ما لم تفوّتْهُ أيٌّ منهنَّ.

في الطريق إلى المدينة حاولن أن يشرحن له هدفَ زيارة كلّ منهنَّ المدينة، وفهمن منهُ أنّه رسّام .

– ما أدرانا أن الأجنبيَّ لم يستمتعْ طويلاً بالتلصُّص على أجسادنا عندما كنَّا نائمات على العشب؟ تساءلت إحداهنّ.

– كيف يفعلُ هذا ونحن لم نسمعْ هدير سيّارته إلا عندما اقتربتْ منا؟ ردَّتْ ثانية.

– ربما رَكَنَها بعيدًا حتى شبع من التَّحديقِ في ركامِ لحومنا العارية، وبعدها سارع إليها وشغَّلَ مُحرِّكها ليُوهِمنا بأنَّه كان آتيًا لتوّه، خمّنتْ ثالثة.

– في كل الأحوال هذا ما جناه علينا سائقُ الجيب الأول، وأما هذا فقد ساقه القدرُ ليُفرجها عنّا.

❖ ❖ ❖

في تخوم المدينة شيَّعن بعضهُنَّ البعضَ بالدموع كما لو كنَّ صديقاتٍ من الأزل.

العجزاء ذات الجلباب الأزرق كانت تقصد المدينة من أجل بنتها الوحيدة التي تحترف الدعارَة منذ اغتُصبتْ من سنتين، لا لأنها متزوّجة وانقطعتْ أخبارُها من سنة، كما زعمتْ للنساء.

ذاتُ الشعر المنسكب حتى ردفيها كانت تقصد المدينةَ من أجل لقاء عشيقها، وهو صاحبُ مقهى، لا من أجل دواء زوجها الطريح ككومة عظمٍ في الفراش من سنة وحسب، كما ادَّعتْ للنساء.

القصيرة ذات الصدر الجامح كانت تقصد المدينةَ من أجل زيارة زوجها المطروح في السجن من سنة بسبب سرقة فظيعة ومحاولة قتل، لا لأنّ أثره اختفى منذ خرج للبحث عن العملِ كما قالت للنساء.

وأصغرهنَّ ذات العينين الخضراوين كانت ذاهبة من أجل فحص أمر تأخُّر دورتها الشهرية كثيرًا عند طبيب لأنها أصلاً فقدتْ عذريّتها، وحبيبُ أختها الأول هو من فعل بها ذلك،لا لزيارة أختها البكر كما زعمتْ للنساء.

تلك كانت حكاية لوحة النائمات على العشب. والسائقُ الأجنبيُّ الذي تلصَّص عليهنّ بالفعل، كما خمّنتْ إحداهنّ، هو من أنجزها في غرفة الفندق التي تعتلي المقهى. السائحُ الرسّام، الذي خرج ذات صباح من غرفة الفندق الرخيص ولم يعد، افتُقِدتْ أخبارُه إلى الآن. وقبل أن تُجْهز الشرطةُ على أغراضه نبشها صاحبُ الفندق، ولم يكن فيها من شيء يلفت الانتباهَ غير هذه اللوحة التي احتفظ بها وعلّقها على حائط مقهاه.